علاقة الخلافة العباسية مع الدولة الغورية

نشأت الدولة الغورية على انقاض الدولة الغزنوية في عام 543هـ/1148م، وسيطرت على كل بلاد الافغان وبعض ممتلكات السلاجقة في خراسان فضلا عن بلاد الهند التي توجهت جهود امراء هذه الدولة لفتحها، واقتضى الحال ان تتعايش الدولة الغورية والدولة الخوارزمية سويا، وقد شابت العلاقات الحربية معظم تلك العلاقة بسبب طموح السلاطين الخوارزميين كما مر بنا قبل قليل، ولما كانت الدولة الخوارزمية في صدام مع الخلافة العباسية، وبالنظر لموقف الدولة الغورية الى صف الخلافة العباسية انتقلت تلك العلاقة العدائية بين الخوارزميين من جهة وبين الغوريين من جهة اخرى. وقد عاصر اعتلاء السلطان الخوارزمي علاء الدين محمد وجود الاخوين غياث الدين محمد وشهاب الدين محمد الغوريين، وكانا يسيطران على هراة وبلخ وغزنين وكابل وسجستان وكرمان، وعندما اعتلى السلطان محمد رئاسة الدولة الخوارزمية استغل الغوريون صغر هذا الامير فوسعا من أملاكهما على حساب املاك الدولة الخوارزمية، وجرت حروب بينهما يطول شرحها في هذه العجالة .

كانت العلاقة متميزة بين الخلافة العباسية وبين الدولة الغورية فقد اصدر كل الخلفاء الذين عاصروا هذه الدولة اوامر التعيين لهؤلاء السلاطين الغوريين، وكانت الهدايا تصل تباعا منهم الى الخليفة العباسي في بغداد ، وكانت السفارات تترى بين الاثنين ، وفي عهد الخليفة الناصر لدين الله اعلن السلاطين الغوريون دخولهم في الفتوة التي كان يقف على رأسها الخليفة العباسي نفسه، فارسل الخليفة الى السلطان شهاب الدين محمد بن سام الغوري لباس الفتوة لكي يرتديها السلطان الغوري، ليمتد نظام الفتوة الى اطراف بلاد الافغان وبلاد الهند من خلال قادة هذه

الدولة، وعندما كانت الخلافة العباسية تتعرض لأي ضغط من الدولة الخوارزمية كانت الأوامر تصدر من بغداد لقادة الدولة الغورية بالتعرض للدولة الخوارزمية واجبارها على وقف تطلعاتها بالسيطرة على بغداد واستعادة مكانة السلاجقة، وفي احد هذه المرات، سأل السلطان الخوارزمي السلطان الغوري لإقامة علاقة متميزة بين الدولتين تتوج بمصاهرة بين قادة الدولتين، فوافق السلطان الغوري على ذلك، وطلب من السلطان الخوارزمي ان يصلح ما فسد في العلاقة بينه وبين

الخليفة العباسي. وهذا يدل دلالة قاطعة على التزام سلاطين الدولة الغورية بطاعة الخليفة العباسي ودفاعهم عن مصالح الخلافة، وقد التزم سلاطين الغور بهذا الامر حتى سقوط دولتهم على يد الخوارزميين، وهنا استطيع أن أوكد أن الدولة الغورية قد دفعت ثمن اخلاصها للخلافة العباسية باحتلال الخوارزميين لها في عام 612هـ / 1215م ، وقد جرى نقاش بين السلطان الخوارزمي وابنه جلال الدين منكبرتي حول الهدف من اسقاط الدولة الغورية، فقال السلطان الخوارزمي لابنه : انه وجد وثائق ورسائل من الخليفة العباسي الناصر لدين الله يحرض فيها الغوريين على مهاجمة املاك الخوارزميين في خراسان ، ولاسيما اذا علمنا ان احدى هذه الحملات الغورية قد وصلت الى اطراف مدينة كركانج عاصمة الدولة الخوارزمية.

اما عن علاقة الغوريين بالقرخطاي فقد ذكرنا قبل قليل ان الغوريين قد وصلوا الى اطراف مدينة كركانج (الجرجانية)، فاستنجد السلطان الخوارزمي محمد خوارزمشاه بالخطا وبسلطان سمرقند المدعو عثمان، فتقهقر الغوريون، باتجاه الجنوب، وفي معركة ((هزاراسب))

اندحر الغوريون وتبعهم القرخطاي، ولم ينقذ الغوريين من هذه الهزيمة غير سلطان سمرقند عثمان الذي صعب عليه رؤية السلطان الغوري المسلم يندحر امام الخطا الكفار، فارسل سرا الى السلطان الغوري شهاب الدين يعلمه ان لاطاقة له بمحاربة الخطا، وانه قد توسط لدى الخطا واعلمهم ان جيوشا غورية جرارة قد جاءت من الهند والافضل للخطا ان يعقدوا صلحا مع الغوريين، كما طلب سلطان سمرقند عثمان من السلطان الغوري ان يرفض عرض الخطا لطلب الصلح اول الامر حتى يشعروا أن هناك قواتا غورية قادمة لنجدة السلطان الغوري، وفي المرة الثانية يقبل السلطان الغوري عرض الخطا بطلب الصلح، وهذا ما تم فعلا، فما احرانا نحن المسلمين ان نقتدي بهؤلاء القادة الكرام الذين لم يهن عليهم أن يندحر سلطان مسلم امام الكفار، ويعينوا المسلمين لا أن يكونوا يدا مع الاجنبي ضد المسلمين وهذا ما نجده اليوم في كل العالم الاسلامي اما السلطان الغوري شهاب الدين فقد عاد الى الهند ليعيد تنظيم قواته ، واعد حملة عسكرية كبيرة جدا ولكن يد الغدر امتدت الى البطل في خضم ساعات التحرير والمقاومة ومجابهة الاعداء اينما كانوا، فخطفت قائد مسلم جاهد لرفع كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله في بلاد الهند وبعد مقتل السلطان الغوري شهاب الدين انفرط عقد الدولة الغورية وتقاسم النفوذ فيها مجموعة من المماليك والأمراء الغوريين، فآل القسم الذي يشمل على هراة وفيروزكوه الى الأمير محمود بن السلطان غياث الدين، ولما كان هذا السلطان صغيرا انشغل في الملذات تاركا شؤون الدولة الى القادة العسكريين وانشغل هو بملذاته الشخصية، فقتل سنة 609هـ/1212م، فحل محله اخو السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه وهو تاج الدين علي شاه ولكن السلطان الخوارزمي لم يرض بهذا الأمر

فجهز حملة وقتل اخاه علي شاه، وفي سنة 611هـ/1214م استولى على غزنين ومد حدود بلاده الى الهند لتسقط بعدها الدولة الغورية في سنة 612هـ 1215م. وبذلك طويت صفحة دولة جاهدت لتمد النفوذ الإسلامي والحضارة الإسلامية في بلاد الهند ليستكمل دورها مماليكها في بلاد الهند، من امثال قطب الدين أيبك وغيره من المماليك التابعين للدولة الغورية، وأسسوا امارات مستقلة حملت اسمهم على مر التاريخ.

هـ - احتلال المغول لبلاد المشرق الاسلامي: بعد رجوع محمد خوارزمشاه الى بلاده وجد نفسه وجها لوجه مع القوات المغولية، فقد كان المغول يطاردون احد زعماء قبائل المركيت المعارضة لهم في منغوليا وهو(توق طغان)، وكان المركيت قد نزلوا بلاد القفجاق وسكنوا في وادي ،القرغيز، وقد تولى المطاردة ابن جنكيزخان المدعو بـ جوجي علم خوارزمشاه بنزول هذه القبيلة في ارضه فخرج لمحاربتهم ولما علم بمقدم المغول انسحب الى سمرقند، لتجميع أكبر ما يمكن من القوات الخوارزمية، وكان يأمل من هذه الخطوة، ضرب الاثنين بسهم واحد، ولكن قوات المغول كانت اسرع منه فهزمت المركيت اما خوارزمشاه فقد قرر الاصطدام مع المغول، وجرت معركة غير حاسمة بين الطرفين، ولولا بسالة ابن السلطان جلال الدين منكبرتي لحلت الهزيمة بالجيش الخوارزمي. في بلاد ماوراء النهر. لم يكن المغول مهيئين للمعركة مع الدولة الخوارزمية في هذا الوقت بالذات، وذلك لإنشغالهم في اعادة تنظيم انفسهم، بعد سلسلة طويلة من المعارك في منغوليا والصين، وكان عليهم ان ينتظروا مدة اطول

للتقدم صوب بلاد الدولة الخوارزمية، لأن المغول لا يتقدمون قبل ان يدرسوا الوضع السياسي والعسكري لهم قبل غيرهم، ثم يجمعوا المعلومات الدقيقة حول عدوهم ويبثوا الرعب في نفوس أعدائهم قبل الهجوم عليهم حتى اذا حلت ساعة القتال، واشتد وطيس الحرب هجم به المغول على جيش مندحر داخليا قبل هزيمته عسكريا، ولكي أوكد هذا القول، اقول ان السلطان محمد خوارزمشاه قد اصابه الرعب والخوف من المغول في المعركة التي جرت وتحدثنا عنها قبل قليل، ولم يكتف . شاهده بل ارسل مبعوثا من قبله الى الصين ليتأكد من حجم الدمار الذي اصاب الصين جراء الغزو المغولي، فجاءته من الاخبار ما لايسره، ولهذ لم يدخل في مواجهة حاسمة مع المغول، بل كان يتقهقر أمامهم كلما تقدموا وهكذا. لم يشأ المغول كما ذكرت قبل قليل ان يدخلوا في مواجهة غير محسوبة مع الدولة الخوارزمية، فقد كانت انباء انتصارات محمد خوارزمشاه على طول الدولة الخوارزمية وعرضها يصلهم تباعا واو باول، ولهذا لابد من دراسة أوضاع هذه الدولة بدقة وعناية، ولهذا ارسل جنكيزخان رسالة إلى محمد خوارزمشاه جاء فيها: ((ليس يخفى على عظيم شأنك، وما بلغت من سلطانك، وقد علمت بسطة ملكك وانفاذ حكمه في أكثر أقاليم الأرض، وانا

ارى مسالمتك من جملة الواجبات وان عندي مثل أعز أولادي، وغير خاف عليك ايضا انني ملكت الصين و يليها من بلاد الترك، وقد اذعنت لي قبائلهم. وانت أخبر الناس بان بلاد مثارات العساكر ومعادن الفضة، وأن فيها لغنية عن طلب غيرها، فـ رأيت ان تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد، عمت المنافع وشمت الفوائد)).

تسلم محمد خوارزمشاه هذه الرسالة فدفعه غروره إلى الثورة والغضب الذي يأتي في غير محله واستشاط غضبا لأن جنكيز خان وصفه بالولد وليس بالاخ أو الصديق واخيرا ترددت الرسل بين الطرفين بالصلح والمهادنة بين الخوارزميين والمغول. استمرت العلاقة التجارية بين الدولة الخوارزمية وبين الدولة المغولية على حالها، وقد وصلت قافلة مؤلفة من ثلاثة تجار خوارزميين الى البلاط المغولي، تعرض احدهم في بداية الامر الى المضايقة، ثم أكرم بعد ذلك، وقد ارسل جنكيز خان قافلة تجارية من عنده مؤلفة من عدد كبير من التجار المسلمين قيل ان عددهم بلغ 450 تاجرا من رعايا المغول وقد كلف جنكيز خان احد هؤلاء التجار بحمل رسالة الى السلطان الخوارزمي جاء فيها: (ان التجار وصلوا الينا، وقد اعدناهم الى مأمنهم سالمين غانمين. وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الاطراف، فينبغي ان يعودوا الينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين، وتنحسم مواد النفاق من ذات البين)). وصلت القافلة الى مدينة اترار التي تعد أول ممتلكات الدولة الخوارزمية، ونظرا لأهمية هذه المدينة الحدودية فقد عين عليها السلطان الخوارزمي احد اقاربه حاكما عليها ويعرف بـ ينال خان، حتى يتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب. ولكن وصف هذا النائب بجشعه وطمعه، ولو أن مصدرنا الوحيد هنا هو المصادر المغولية التي تعد الأساس في موضوعنا هذا. الا ان هذا الحاكم وصف بالطمع والجشع واستغلال النفوذ، فطمع في ما تحمله القافلة من تحف وهدايا واموال، وقام بالاستيلاء على كل ما تحمله القافلة وقتل التجار واتهمهم بالتجسس لصالح جنكيز خان، ولم ينج من هذه المذبحة المريعة الا تاجر واحد استطاع ان يفلت من القتل ويكون الشاهد الوحيد على المذبحة، ونقل هذا التاجر لجنكيز خان كل ماشاهده ووقعت عينه عليه . أن مثل هذا العمل لا يمكن ان يتم دون موافقة مبدئية من السلطان الخوارزمي، واذا لم يعلم فبامكانه التحقيق في الأمر وتقديم الاعتذار ولو ان ابن الأثير يحمل السلطان الخوارزمي مسؤولية ما حدث، وان التجار قتلوا بامر من خوارزمشا مباشرة علم جنكيز خان بما حلّ بالتجار من سلب ونهب وقتل فاستشاط غضبا، لكنه أثر التمهل على الاستعجال، فبعث رسالة الى السلطان الخوارزمي جاء فيها : ((إنك قد أعطيت خطك ويدك بالامان للتجار، ألا تتعرض الى احد منهم، فغدرت ونكثت والغدر قبيح، ومر سلطان الاسلام اقبح، فان كنت تزعم ان الذي ارتكبه ينال خان كان ،من غير امر صدر منك، فسلم ينال خان إليّ لأجازيه على ما فعل حقنا

للدما وتسكينا للدهماء،والا فاذن بحرب ترخص فيها غوالي الارواح)).بعث جنكيزخان رسالته مع اثنين من الرسل فقتل احدهم خوارزمشاه وارسل الآخر مهانا الى جنكيز خان، وبهذا قطع أي امل لأ حل دبلوماسي بين الطرفين وقد علق المؤرخ علاء الدين عطاء ما الجويني مؤلف كتاب جهانكشاي على تصرف خوارزمشاه قائلا: ((ان كـ قطرة من دماء هؤلاء التجار، قد اجرت نهرا من دماء المسلمين، وكـ القصاص لكل شعرة مئات الألوف من الرؤوس)) .

تجهز جنكيزخان لحرب الدولة الخوارزمية، بعد أن جاءته الحجم وكان في موقف أفضل بكثير من علاء الدين محمد خوارزمشاه من النواحي السياسية والاقتصادية والنفسية والعسكرية، وهو مستعـ ايما استعداد لتلك الحرب، وشعبه معباً لها نظرا
لما اقترفه الخوارزميون بحق تجار المغول المسلمين انظر لمن يعطي الحجة على نفسه، ماذا لو اصطنع هؤلاء التجار الى صفه و هم مسلمون ان كان ظنه السوء بهم أو يعفو عنهم وهو غير مهيا لأي شيء . اما علاء الدين فقد ازال كل الدول والامارات الاسلامية التي تجاوره، وعادى الخليفة العباسي، بل وخلعه وهو له مكانة خاصة ومتميزة لدى المسلمين، فضلاً عن عدم معاملته لشعبه بطريقة حسنة، وفضلا عن كل هذا فقد غير مذهب الدولة الرسمي، وهذا شيء غير هين في ذلك الوقت.توجهت الجيوش المغولية بقيادة جنكيز خان مصطحبا معه كل ما يمكن أن يعد لمعركة مصيرية، وقاد اربعة جيوش عين على رأسها اولاده، فضلا عن قيادة الجيش الرابع بنفسه، وتوجهت هذه الجيوش الاربعة الى اراضي الدولة الخوارزمية، وتقسيم هذه الجيوش وتوزيعها يؤكد معرفة جنكيز خان لطبيعة الاقليم والهدف من تقسيم هذه الجيوش هو لمنع أي اتصال بين القوات الخوارزمية، ومنع أي اتصال بين القوات الخوارزمية المحاصرة والجيش الخوارزمي الرئيس ومنع أي اتصال وتعاون بين المدن المحاصرة .كان الهدف الأول للجيش المغولي هو مدينة اترار التي بسببها وقعت الحرب، وقد قاومت هذه المدينة المغول طيلة خمسة اشهر، ستماتت حاميتها في الدفاع عنها ، لكنها لم تصمد حتى النهاية، فدخلت لقوات المغولية المدينة وهي مشبعة بالحقد والكراهية على سكان اترار جرت مذبحة رهيبة لم ينج منها احد ، اما ينال خان سبب المشكلة فقد جيء به اسيرا الى جنكيز خان حيث امر بان تصهر الفضة وتصب في عينيه واذنيه وفمه. كما تعرضت المدينة للحرق والتدمير بشكل كامل بيع سكانها عبيدا في الاسواق .

وبعد سقوط مدينة اترار كانت القوات المغولية تحاصر مدينة جند بقيادة جوجي بن جنكيزخان، وكانت هذه المدينة من اهم مدن الثغور في بلاد ماوراء النهر على نهر سيحون سيرادريا ،وعندما اقتربت جيوش المغول من هذه المدينة غادرتها القوات الخوارزمية، وتركوا اهلها يواجهون مصيرهم، فمهما كانت قوة الاهالي لاتصمد امام جيش منظم لديه العتاد والسلاح والتدريب وآلات

الحصار فانقسم اهلها بين مؤيد لدخول المغول صلحا الى المدينة وبين المقاومة عند ذلك شدد المغول الحصار على المدينة ففتحوها عنوة، وقتلوا كل من وجدوه فيها، فحتى لو وافق السكان على الاستسلام لجرى لهم الشيءنفسه من القتل والتدمير ثم انطلقت القوات المغولية (الجيش الثالث) لحصار بناكث وخجند ففتحت بناكث ابوابها للمغول بعد ثلاثة ايام من القتال، اما خجند فقد كانت مدينة جميلة ذات حدائق غناء وبساتين وزروع، وقد قدر حاكمها تيمور ملك مغادرة المدينة لكونها مكشوفة للمغول، رحل بقواته صوب جزيرة في نهر سيحون وظل يقاوم المغول وينزل بهم الخسائر الفادحة حتى اضطر لمغادرة موقعة وظل يقاوم المغول حتى الجأوه الى خراسان، وقد دخل المغول المدينة وفعلوا بها ما فعلوه بكل مدينة دخلوها.بعد ذلك توجه المغول بالجيش الرابع الى مدينة بخارى الذي كان يقوده جنكيزخان نفسه وحاصرمدينة بخارى،تلك المدينة التي حملت مشعل الحضارة في بلاد ماوراء النهر لقرون عديدة، وخرج اعيان المدينه يطلبون الصلح من المغول، فوافق المغول على الصلح وفتحت المدينه ابوابها، واستمرت المقاومة في قلعة المدينة الذين استبسلوا في الدفاع عنها، ودخل جنكيزخان مدينة بخارى وترجل امام المقصورة، وسأل عن اذا كان هذا قصر السلطان، فقيل له هذابيت الله هذا المسجد الجامع فصاح قائلا: (كانت الصحراء خالية من العلف، اما الآن فملاؤا بطون خيولهم وأشبعوها واستولوا على الغلات، ثم حملوا الى فناء المسجد عدة صناديق تحتوي مصاحف القرآن الكريم، والقوا بها تحت حوافر الخيل ... وصاروا يشربون ويرقصون ويغنون وفق اصول غنائهم والحانهم)). ولما وقفت القلعة تقاوم الغزاة امر باخراج الناس مـــن بخارى واحرقها، ولما كانت مبنية من الخشب احترقت بكل سهولة اما بقية الناس فقد امر اتباعه باقتسامهم خلافا لما تم الاتفاق عليه من شروط الصلح وتسليم المدينة، فلم يعرف الولد اباه ولم تعرف الاخت اخاها ولا الزوجة زوجها او ابنائها، وقد وصف هذا الموقف المؤرخ ابن الاثير فقال: ((وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء الولدان، وتفرقوا أيدي سبا وتمزقوا كل ممزق، واقتسموا لنساء ايضاً, واصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وارتكبوا من لنساء العظيم، والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن نفسهم شيئا مما نزل بهم فمنهم من لم يرض بذلك، فقاتل حتى قتل... من استسلم اخذ اسيرا، والقوا النار في البلد والمدارس والمساجد عذبوا الناس بانواع العذاب من طلب المال)). وقد هرب أحد سكان مدينة بخارى من المغول فوصل خراسان فسأله اهل خراسان عما فعله

المغول فقال: ((لقد اتوا فخربوا واحرقوا وقتلوا ونهبوا ثم ذهبوا)).

اما مدينة سمرقند فقد توجه اليها جنكيزخان بنفسه بعد ان فرغ من دينة بخاري، مصطحبا معه عددا كبيرا من الأسرى لإستخدامهم في عبيد الطرق ورصفها بالحجارة واستخدامهم كفعلة تخدم

المغول، وفي تحطيم الاسوار، فضلا عن اتخاذهم كدروع بشرية يتلقون الضربات ألاولى من سكان المدن التي سيحاصرها المغول مستقبلا، ولارعاب سكان مدن بان هذا هو عدد جند المغول لكي يدخلوا الرعب في نفوسهم. وقد

انطلقت القوات الخوارزمية تدافع عن المدينة، وقد قام المغول بوضع خطة لاستدراج الحامية الى كمين نصب لها، فتظاهر المغول بالهزيمة فجرت الحامية وراءهم الى الكمين فوقعت فيه، ويقال ان عدد هؤلاء الجند كان يقرب من 50000-70000 جندي) ، وكانت هذه خسارة كبيرة بالنسبة لسكان سمرقند المتحصنين في المدينة، وقد طلب اهالي سمرقند الأمان فوافق جنكيز خان على ذلك ودخل المدينة سنة 617هـ / 1220م ، وجمع السلاح الاموال والحيوانات واشعلوا فيها النيران حالها حال بقية المدن الأخرى، كما اخذوا عددا من صناع المدينة الى منغوليا للاستفادة منهم هناك، وبسقوط مدينتي بخارى والسمرقند، اصبح الطريق ممهدا للقوات المغولية لعبور نهر جيحون والتوجه الى خراسان .

توجهت القوات المغولية وعبرت نهر جيحون، ومن جملة وصايا الجيش المغولي ضرورة القبض على خوارزمشاه حيا، فعبرت الجيوش نهر جيحون عام 617هـ / 1220م ، فوصلت بلخ واستولت عليها وفعلت فيها مثل ما فعلت بغيرها من المدن اما السلطان خوارزمشاه فقد آثر عنده الاصطدام بالجيش المغولي ، وكانت لديه القدرة على الانتصار عليهم لبلوغ تعداد جيشه أكثر من 30000 مقاتل، ولكن روح الهزيمة حلت به فأخذ يهرب ،امامهم، كما قام خوارزمشاه بنقل عياله الى احدى قلاع جبال البرز (قارون)، وفد اراد خوارزمشاه التوجه الى العراق لكنه عدل عن هذه الفكرة في نهاية الأمر، وتوجه الى اقليم مازندران تطارده قوات فاخذ المغول من مكان إلى آخر، وهرب الى احدى جزر قزوين حيث لاقي حتفه ولم يجد اتباعه كفنا له فسبحان الله رب العرش العظيم، لقد ملك بلاد الشرق، وعندما توفي كفنه احد اتباعه بقميصه ودفن بجزيرة سربنجاته

ولما سيطر المغول على كل مدن خراسان حيث سقطت الواحدة تلو الأخرى لم ينسى جنكيزخان مدينة الجرجانية عاصمة الدولة الخوارزمية، فتوجه اليها واحتلها وخربها، بعد أن وضع خطة عسكرية محكمة تحاصرالمنطقة من جميع الجهات تقريبا، ووضعوا خطة لجر المدافعين عن

الجرجانية كما فعلوا في خطه سمرقند . وهي التقهقر امام المدافعين وجرهم الى منطقة كمين وقتل، وهذا ماجرى فعلا .

بعد احتلال اقليم خوارزم توجهت القوات المغولية صوب مدينة مرو ونيسابور، ، وعلى الرغم من عقد اتفاق للصلح ابرم مع المغول الا ان المغول سرعان ماكانو ينقضون المواثيق والعهود، وحل بهاتين المدينتين ما حل بغيرها من مدن المشرق الاسلامي . ثم توجهت القوات المغولية الى مدينة هراة فاحتلتها، ثم توجهت الى مدينة غزنة التي لجأ اليها جلال الدين منكبرتي لكن لم تفلح محاولاته في الدفاع عن المنطقة، فأصبح المغول على أبواب الهند الشمالية.

اما جنكيزخان فقد عاد الى منغوليا، وتوفي سنة 624هـ / 1227م . وقد قسم املاكه على عادة العرف البدوي المغولي بين ابنائه، وظل منصب الخانية شاغرا لمدة سنتين تقريبا، حتى تمكن المغول من اختيار خان جديد لهم، فاجتمع مجلس القوريلتاي في سنة 626هـ / 1229م، وانتخبوا مكوخان وأعلنوه خانا جديداً لهم. وكان هدف الخان الجديد هو القضاء على جلال الدين منكبرتي الذي حاول ان يعيد تنظيم نفسه من جديد، مستغلا انشغال المغول بتنصيب خان جديد و انسحاب قسم كبير من القادة والجند المغولي الى منغوليا، وقد دخل جلال الدين منكبرتي في صراعات عديدة مع معظم الحكام في خوارزم والسند وخراسان و اذربيجان وآسيا الصغرى ومع الأيوبيين ومع الخليفه العباسي ومع اخوته حيث خانه أحد اخوته أثناء المعركة مع المغول، وكان هذا يقتضي جهوداً جبارة منه، فحارب الجميع والمفروض أن يساعده الجميع ويقفوا معه ضد العدو المشترك والخطير و القوي الا وهم المغول. توجهت قوات مغولية قوية جداً ولاحقت جلال الدين منكبرتي وسيطرت في طريقها واستعادت كل المناطق التي خسرتها أثناء انسحابها إلى منغوليا، وظلت القوات المغولية تحارب جلال الدين منكبرتي حتى قضت على آخر أمل له بالعودة إلى عرش الدولة الخوارزمية . حيث قتل في خلاط على يد احد الأكراد سنة 628هـ / 1231م.

و - احتلال المغول للعراق :

بعد القضاء على جلال الدين منكبرتي توجهت القوات المغولية إلى مختلف المدن والقصبات القريبة من العراق ولم تجازف كما ذكرنا ذلك بدخول العراق مباشرة والاشتباك مع الجيش العباسي، وانما سيطرت على كل المناطق المحاددة للعراق من جهاته الشرقية والشمالية، ودخلوا في معارك جانبية هدفها في نظري الاستطلاع بالقوة وجس النبض والتعرف على خطط الجيش العباسي، فقد كتب النصر في هذه المعارك مرة للمغول ومرة للجيش العباسي، وهذا ما حدث سنة 634هـ / 1236م عندما وصلت القوات المغولية الى اطراف سامراء، حيث هزمهم الجند العباسي

بالقرب من جبال حمرين ، لكن المغول عاودوا الكرة في سنة 635هـ / 1237م فهزموا الجيش العباسي قرب ،خانقين وبهذا اصبح الخطر المغولي يدق ابواب الخلافة العباسية في بغداد. كان المفروض بالخليفة العباسي وهو المسؤول الأول عن المسلمين في ذلك الوقت أن يعد العدة الكافية بما يمتلكه من سيادة روحية على جميع المسلمين، فهو المسؤول الأول عن ارواحهم أمام الله سبحانه وتعالى وامام الناس جميعا،وكان بمقدور الخلفاء العباسيين المتأخرين ان ينتبهوا الحقيقة الأمر، عندما رأوا ما فعله المغول بمختلف بلدان العالم الاسلامي فلم يدخل المغول مدينة من المدن الاسلامية الا واحرقوها وقتلوا اهلها ونهبوا خيراتها، فماذا يحدث لو اجتمعت قيادة حكيمة مؤمنة بالله سبحانه لمجابهة هذا العدو المجرم الغادر. كان بمقدور الخلفاء العباسيين لم الشمل وتوحيد الكلمة ورص الصفوف، صحيح ان السلطان الخوارزمي قد عادى الخلافة العباسية ولكن هل كل المسلمين في الشرق الاسلامي عادوا الخليفة العباسي لكي يتركوا ويواجهوا ذلك المصير الاسود الذي لا يستحقونه كل ما فعله الخليفة العباسي والخطر يدق ناقوسه على العراق ان جمع العلماء وافتوا بان الجهاد أفضل من الحج، وتجمعوا تحت قيادة الدواتــدار (الدويدار). كما لم يخف على احد الخطر المغولي القادم من الشرق فبعد مقتل جلال الدين منكبرتي جاء احد الاشخاص الى الملك الاشرف الأيوبي يهنئه بقتل عدوه، فرد عليهم قائلا: ((تهنئوني به وتفرحون .....

سوف ترون غبه ، والله لتكونن هذه الكسرة سببا لدخول التتار الى بلاد الاسلام ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين ماجوج.بعد ان اكملت القوات المغولية استعداداتها توجهت الى العراق يقودها هولاكو وقد اعد الخان الأكبر منكوخان كل مستلزمات النصر لأخيه هولاكو الذي توجه الى بغداد مقر الخلافة العباسية، وقد أوصاه قائلا: (واذا فرغت من هذه المهمة، فعليك ان تتوجه الى العراق، وأزل من طريقك اللور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها، وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقا، اما اذا تكبر وعصى، فالحقه بالآخرين من الهالكين)) توجه هولاكو نحو المناطق التي من الممكن أن تشكل عائقا أو خطرا في المستقبل على تحركات المغول في المنطقة، فقضى على حلفائهم السابقين وهم الاسماعيلية ودمر قراهم وحصونهم وقلاعهم التي ظلت عاصية على من سبقوهم من الدول، وكذلك فعل مع اللور والاكراد في مناطق شمال العراق، وبهذا تهيأ له الجو لدخول ارض العراق . قبل الحديث عن دخول المغول الى العراق واسقاط الخلافة العباسية ، لابد من التطرق الى أوضاع الخلافة العباسية في العراق وامكاناتها الاقتصادية والعسكرية فنقول ومن الله التوفيق .

توجه هولاكو صوب بغداد وهو يحمل فى نفسه حقدا على الخلافة العباسية التي رفضت ان تمد يد العون له، لمهاجمة قلاع الاسماعيلية في وسط ،خراسان وارسل رسالة فيها من الوعيد والتهديد للخليفة العباسي جاء فيها: ((لابد انه قد وصل الى سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على ايدي الجيوش المغولية منذ جنكيز خان و علمت أية مذلة لحقت بامر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والاتابكة وغيرهم ممنكانوا ارباب العظمة ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه اية طائفة من تلك الطوائف التي تولت هنا السيادة، فكيف يغلق هذا الباب في وجوهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان؟... وقد نصحناك قبل هذا... فعليك أن تهدم الحصون وتطم الخنادق، وتسلم ابنك المملكة، ثم تتوجه لمقابلتنا وان كنت لاتريد ذلك، فارسل الينا الوزير وسليمان شاه والدواتدار، ليوصلوا رسالتنا اليك بغير زيادة أو نقصان... فاذا اردت ان تحفظ رأسك واسرتك، فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء، والا فسارى كيف تكون ارادة الله)). كان رد الخليفة الرفض وارسل رسالة الى هولاكو جاءت بنفس : المضمون من الوعيد والتهديد، نذكر منها أيها الشاب الحدث الذي لم يخبر الأيام بعد، والذي يتنمى قصر العمر، والذي أغرته اقبال الايام ومساعدة الظروف، فتخيل نفسه مسيطرا على العالم... ألا يعلم الامير ان من الشرق الى الغرب ... كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي.... فان كنت مثلي تزرع بذور المحبة، فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم.... طريق الود وعد الى خراسان وان كنت تريد الحرب والقتال، فلا تتوان لحظة ولاتعتذر ، فان لي الوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة هم على اهبة الاستعداد للقتال)) .. وصلت الأمور الى طريق مسدود بين الخليفة العباسي المستعصم بالله وقائد الجيش المغولي هولاكو ، واستعد كلا الطرفين للحرب، وكان الخليفة يعتقد بمعاونة كل القوى الاسلامية في الشام ومصر من الايوبيين والمماليك، كما كان يعتقد انه اثناء الهجوم على بغداد ستتمرد كل القوى الإسلامية في المشرق الإسلامي، وقد أخطأ الخليفة بذلك التقدير، فكان كل من المماليك والايوبيين مشغولين بمشاكلهم الخاصة، أما الحكام المسلمين في المشرق، فقد أذهلهم الغزو المغولي وما ارتكبه المغول بحقهم من مجازر ، فانشغلوا عن مساندة الخلافة بل قدم البعض منهم الدعم المالي والعسكري والبشري للمغول تقدمت القوات المغولية من عدة جهات لمحاصرة بغداد، فقسم سلك طريق اربيل الموصل تكريت وقسم توجه إلى العراق عبر طريق السليمانية كركوك بغداد، وقسم انطلق من منطقة الاحواز، اما هولاكو فقد انطلق من همدان باتجاه خانقين بعقوبة بغداد وحوصرت بغداد من كل الجهات، وبدأ التقدم المغولي صوب بغداد التي ما لبث أن اندحر جيشها امام ضربات المغول، واستسلم الخليفة العباسي المستعصم بالله للمغول، وقد امنه المغول، ولكن أي امان للمغول امانات بخارى ام امانات سمرقند فامره هولاكو باخراج خزائنه وكانت مالا عظيما، ادهشت كل من رآها، واستبيحت بغداد اربعين يوما فلم يبق فيها مسجد ولا دار ولا شجرة واضرمت فيها النيران كعادة المغول في كل مدينة

احتلوها، والقيت امانات الكتب في دجلة حتى ليقال ان ماء النهر أصبح بلون الحبر من كثرة .. القي فيها من كتب ومخطوطات. وبذلك زال مشعل العلم الذي تحمله المدينه وانتقلت مراكز العلم الى بلاد الشام ومصر، كما خسرت بغداد باحتلال المغول ما يقرب 000 800 نسمة من خيرة اهلها من الرجال والنساء والعلماء والادباء، ونهبت القصور والمآذن وتأذت مراقد الائما الكرام ونهب مرقد الامام موسى الكاظم رضي الله عنه اما الخليفة العباسي فقد القي في خرارة (كيس) ورفس حتى مات. وبعد سقوط بغداد توافد على هولاكو عدد من حكام المناطق لإعلان الولاء لهولاكو، وقد تملق قسم منهم تملقا يعبر عن وضاعة بعض هؤلاء الحكام، فقد قام احد سلاجقة الروم برسم نعل طبع عليه صورته، وجاء به إلى هولاكو وقال له: ((عبدك يأمل ان يتشرف الملك فيشرف رأس عبده . بوضع قدمه المباركة عليها فرق له قلب الطاغية هولاكو، ورفعت دوقوز خاتون - زوجة هولاكو من ،قدره وتشفعت فيه فعفا عنه الايلخان)) ولاشك ان ذلك الموقف المخزي يصور لنا الحد الذي بلغه بعض الحكام المسلمين من الاستذلال والمهانة.

ز - اسباب فشل الخلافة العباسية في مواجهة المغول :

ان الباحث في تاريخ اسباب فشل الخلافة العباسية في مواجهة المغول، لا يمكن ان يدرك كل اسباب ذلك الفشل، ولكن يجتهد عله يصل إلى بعض الحقائق ومنها:

1 كانت الخلافة العباسية قبل حملة هولاكو، قد تعرضت الى الكثير من عوامل الضعف والانهيار بسبب سيطرة العناصر المتغلبة عليها من فرس وترك وبويهيين وسلاجقة، وما تفرع عن هذه الاتجاهات من دول وممالك وامارات، بحيث انه لم يعد يملك الخليفة العباسي غير السيادة الروحية فقط ، وقطعت عن الخلافة كل الأموال التي كانت ترسل الى بغداد لتمشية أمور الدولة العباسية، وما يتوجب عليها من التزامات اهمها اعداد جيش قوي، يدافع عن الدولة العباسية، فحتى الخليفة العباسي اصبح عاجزا عن حماية نفسه، فكيف يطلب ممن لا يستطيع الدفاع عن نفسه ان يدافع عن الدولة وسكانها . وسيطر المتغلبون على ممتلكات الدولة العباسية، وطالب قسم منهم الخليفة ببيع انقاض داره، وطالب آخرون الخليفة ببيع ملابسه وخزائنه، لابل طالبه البعض ببيع حلي نسائه

2- ولنا أن نتصور ارض الخلافة قبيل الغزو المغولى تمتد من تكريت شمالا إلى البصرة جنوبا ومن ثم تمتد الى منطقة الاحواز، ومن خانقين شرقا الى نهاية حدود الانبار غربا، فتصور اخي امكانية هذه الدولة الاقتصادية، فكلما قويت الدولة اقتصاديا ووجد لها رئيس جيد بعيد النظر، اعد جيشا قويا مدربا على الأقل يستطيع الدفاع عن حدود الدولة صحيح، أن الدولة صغيرة ولكن يمكن لهذا الجيش ان يوقف تقدم الاعداء على الاقل او يعرقل تقدمهم فترة من الزمن

3- وكان الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء 640-656هـ/1242- 1258م ((لين الجانب سهل العريكة، سهل الاخلاق، ضعيف الوطأة مستضعف الرأي، ضعيف البطش، قليل الخبرة بشؤون المملكة، مطموعا فيه غير مهيب في النفوس، ولا مطلع على حقائق الأمور وكان زمانه ينقضي بسماع الاغاني، والتفرج على المساخرة، وفي بعض الاوقات يجلس بخزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة، وكان اصحابه مسئولين عليه، وكلهم جهال من أرذال العوام)). وفي احرج الاوقات والمغول على ابواب العراق كتب الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، يطلب منه جماعة من ذوي الطرب، وفي نفس الوقت دخل مبعوث هولاكو الى بدر الدين لؤلؤ، يطلب منه منجنيقات وآلات الحصار الحصار ،بغداد، فقال بدر الدين: ((انظروا الى المطلوبين وابكوا على الإسلام وأهله)) . وقد وصف الخليفة المستعصم بالله أن كان شديد البخل، يكنز الأموال، ويقيم وزناً كبيراً للدينار والدرهم، ولا يصرف الأموال في شؤون الدفاع واعداد الجيش لكي يشجع الجنود ويحثهم على مواجهة الاعداء، وقد استمر هذا العيب لاصقا به حتى في احرج الأوقات .

4- عند اقتراب المغول الى حدود العراق، لم يتخذ الخليفة المستعصم بالله أي اجراء، لمواجهتهم قبل ان يستفحل خطرهم، أو على الاقل يداهنهم او يصانعهم، كما صنع غيره من امراء الولايات، وعندما كان يقال له: ان المغول على أبواب العراق، كان يرد عليهم انا بغداد تكفيني، ولا يستكثرونها لي، اذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا ايضا يهجمون علي وانا بها، وهي بيتي ودار مقامي)) . وقد وصفه احد المؤرخين فقال: كان متدينا متمسكا بمذهب اهل السنة والجماعة، على ما كان عليه والده وجده، ولم يكن على ما كانوا عليه من التيقظ والهمة، بل كان قليل المعرفة والتدبير و التيقظ نازل الهمة محبا للمال، مهملا للامور يتكل فيها على غيره)) .

5- رغم ان الخليفة المستعصم بالله كان ضعيف الرأي، قليل العزم، كثير الغفلة عما يجب لتدبير الدول، كان يظن في نفسه القدرة على المكر والصمود أمام الخطر المغولي، فخالف بذلك السياسة التي سار عليها اسلافه من قبل مثل تعاملهم مع البويهيين والسلاجقة وغيرهم، اذ كانت القاعدة عند هؤلاء الخلفاء ان يقبلوا الى جانبهم امير الأمراء البويهي ، او السلطان السلجوقي، وكان الخليفة حين يستسلم يتمسك بوظائفه الروحية، ويترقب الأوضاع العامة، فكلما سنحت له الفرصة لتحسين وضعه استغلها احسن استغلال لصالح الخلافة، وعمل على انهاء ذلك التدخل، بينما الخليفة المستعصم تمسك باشياء جوفاء في هذا الوقت بالذات فكتب جوابا لهولاكو جاء فيه: (ان) كل ملك قصد اسرة العباسيين ودار السلام، صارت عاقبته وخيمة، ومهما قصدها الملوك ذوو الصلابة واصحاب الشوكة، فأن بناء هذه الأسرة محكم للغاية، وسوف يدوم الى يوم القيامة))

6- لم يكن زمام الأمور في بغداد بيد واحدة مخلصة قوية تدير البلد وقت الشدة، بل كان في ايدي غير متعاونة ومتجانسة ولاتهمهم الا مصالحهم الخاصة اما مصلحة الدولة والناس، فليس لهم غرض فيها، وقد انتقلت هذه الخصومات الى التحاسد والتباغض وتدبير المؤامرات وتسفيه آراء الغير عند الخليفة وانتقاص قدره ورأيه، والخليفة ليس له القدرة على التمييز، أو وضع حد لهذا التصرف أو ذلك. وانتقلت هذا الحالة الى الوزير وقائد الجيش حيث اخذ كل منهما يدبر المؤامرات للآخر، واطلع الخليفة على محاولة لخلعه، لكنه غفا عن فاعلها وأمر بان يذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة وهكذا اصبحت الخلافة في وضع لاتحسد عليه، وانتقل هذا الصراع الى عامة الناس فقبيل هجو المغول على بغداد حدثت فتن راح ضحيتها الابرياء من الناس في لحياء بغداد المختلفة ورؤوس الفتنة تدير الامور من وراء جدر 7 كانت للعوامل الاقتصادية وسوء معاملة الفلاحين وهم عماد اقتص الدولة العباسية، اثر مهم في اضعاف تلك الدولة، كما لعبت سو الجباية وتقدير الضرائب وطريقة جمعها أثر في احداث اضراً اقتصادية اثرت على الناتج بشكل عام، كما اثرت الفتن المختلفة على الطبقة العاملة الزراعية اذ اهلكتها الحروب، فتركت الاراضي بدو رعاية وقل الانتاج الزراعي، ومن ثم نقصت واردات الدوله العباسية .

آثار سقوط بغداد :

أما آثار سقوط بغداد فكانت عظيمة على المسلمين في المشرق والمغرب اذ ظلت بغداد مركزا للحضارة و للإشعاع العلمي طيلة خمسة قرون فضلا عن كونها مركزا الخلافة العباسي ومستقر آل بين العباس من أتباع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ويمكن أن نجملها بنقاط التالي :

1.كان المسلمون يتطلعون إلى الخلاف على أنها رمز الممالك الإسلامية جميعها، يجب أن يظل قائما وكانوا ينظرون إلى الخليفة نظرة إجلال وإكبار لما له من نفوذ ديني على جميع المسلمين على الرغم من فقدان الخلاف العباسي منذ فترة طويلة إمكاناتها المادية لكن ظلت تتمتع بمكانتها الدينية والروحية وكذلك بغداد مقر خلاف العباسي.

2. كانت بغداد قبل الغزو المغولي مركز للنشاط السياسي في جميع أنحاء الشرق الإسلامي يؤمها وفود المسلمون من مختلف أقطار العالم الإسلامي وهي الرابطة بين مختلف أرجاء العالم الإسلامي وهي موطن حل المشاكل التي تعترض قادة العالم الإسلامي في ذلك الوقت ففقدت بغداد بالاحتلال المغولي هذه المكانة السياسية وحلت محلها مراكز أخرى في مصر وشمال أفريقيا وأذربيجان كما انخفض عدد سكانها بعد الاحتلال المغولي إلى العشرة مع ما يترتب على هذه الأوضاع من حصار الأعمال تجارية ونشاطات المتعلقة بها.

3.كانت بغداد مركز للنشاط العلمي لمدة تجاوزت الخمسة قرون وأصبحت في حكم هذه المدة مركزا وموئلا للعلماء والمدونات العلمية وكان أساتذتها قادة لرجال العلم في عموم العالم الإسلامي وقد صاحب الغزو المغولي قطر عدد كبير للعلماء والأدباء والشعراء وأحرقه معظم المكتبات وأصبحت المخطوطات وقود لجنود المغول يطبخون عليها طعامهم كما انحسرت مكانت اللغة العربية فبعد أن كانت هي اللغة الأساسية في العلم والإدارة انحسر نفوذها إلى العلوم الشرعية فقط وحلت محلها في المشرق اللغة الفارسية التي أصبحت لغة الإدارة والحكم.

4.اثار سقوط بغداد على يد المغول فرحا شديد لدى المسيحيين في عموم آسيا وهللوا لهولاكوا وزوجته المسيحية دوقوز خاتون واعتبروهما قسطنطين وهيلينا وإن هما ليس إلا ادوات الله للانتقام من عداء المسيح .

5.خلو العالم الإسلامي من قائد روحي بمقتل الخليفة المستعصم بالله فما حصل من استئصال الأسرة العباسية والتدمير العاصمة بغداد جعلت زعامة العالم الإسلامي شاغرة يتطلع لاحتلالها كل زعيم طموح من المسلمين فلما تولى الظاهر بيبرس عرش مصر بحث عن أحد بقاية الأسرة العباسية ونصبه خليفة المسلمين ونقل مركز الخلافة إلى مصر .

6.أثار سقوط بغداد الحزن العميق والأشجان في طول العالم الإسلامي وعرضة و بدأ هذا واضحا في أقوال الشعراء والأدباء نقتطف منا

عندي لأجل فراقكمآلام فالأم وأعذل فيكم والأم

يادارأين الساكنين وأين ذ ياكالبهاءوذلك الاعظام

ح ـ معركة عين جالوت (اسبابها ونتائجها وآثارها)

بعد استكمال احتلال العراق من قبل هولاكو وبعد أن تم القضاء على العناصر التي تمردت على المغول في بعض مناطق العراق (تمرد أربيل) و (تمرد الموصل) وبعد أن تم القضاء على هذين التمرد ين بقسوة متناهية ورغم دفاع الأكراد وأهل الموصل المستميت إلا إن كلا المدينتين قد تعرضت للتدمير على يد المغول.

توجه المغول إلى بلاد الجزيرة الفراتية واحتلوا مدنها الواحد تلو الاخرى وقد عاونهم في ذلك ملك أرمينيا هيثوموملك أنطاكيا صهر هيثوموبارك بطريرك الأرمن هذا الاتفاق وشارك الأرمن و الأفرنج المغول بكل ما يملكون من قوة وقدرة وطاقة بعد اوعدهم المغول أن يعيدوا إليهم بيت

المقدس وما يمكن أن يرجعه إليهم والمغول جزاء ذلك التعاون ولم يكن في الشام قدرة على مواجهة المغول لتفتت الجبهة الداخلية والانهيار النفسي الذي أحدثته انتصار المغول على كل من وقف بوجههم فسقطت ميافارقين وديار بكر وحلب وحمص وغيرها من القلاع والحصون في بلاد الشام وقد لاقت كل المدن التي وقعت بيد المغول نفس المصير من قتل وأسر وتدمير وحرق سواء المدن التي استسلمت صلحا أو واحتلت عنوة وما جرى في حلب أو دمشق أو وديار بكر لا يختلف عما لقدته مدينة بخارة أو بغداد أو سمرقند أو الراي أون نيسابور. وبعد السيطرة على بلاد الشام قرر هولاكو مهاجمة فلسطين وبلاد مصر وقد كتب رسالة شديدة اللهجة إلى الملك المظفر قطز جاء: ((فيها يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته إننا نحن جند الله في أرضه خلقنا من سخطه وصلتنا على من حل به غضبه فلكم جميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر و أسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود إليكم الخطأ فنحنو ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى وقد سمعتم إن أنا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب فأي أرض تقوي كم وأي طريق تنجيكم وأي بلاد....)) .

بعد وصول هذه الرسالة إلى الملك المظفر قطز جمع قادة الجيش وسائر الأمراء،واستجلى آرائهم فقسم أراد الاستلام وقسم فضل الهرب أما القسم الأقل فقد أصر على المواجهة وضرورة حرب المغول ،وأن أهل مصر قد قدموا للممالك كل شيء فعلي المماليك أن يريد الجميل المصريين والمسلمين الذين هم جزء منهم ويقفوا بوجه المغول وقفة مشرفة يذكرها التاريخ على مر العصور وقام قطز يطلب آراء الفقهاء والعلماء ودعا المماليك إلى تبرعوا بدأ بنفسه وطلب معونة الناس في أتبرع بما يمكن أن يقدموه لدعم الجيش المصري فلما تكاملت لديه جيوش سارة عن مصر مفضلة للقاء العدو خارج أرض مصر منطلقة منقول الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه :((ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا)) كما قام بقتل أرسله هولاكوا قطعا لأي أمل في الصلح وعلقوا على أبواب القاهرة .

اما في منغوليا فقد مات منكوخان واضطرا هولاكو إلى الرجوع إلى منغوليا الانتخاب خان جديد وعهد بقيادة الجيش المغولي إلى كتبغا الذي تقدم لملاقاة الجيش المصري وكان قطز هيأ كل مستلزمات النصر من محاولة استطلاع خطط المغول وتعبئتهم العسكري وهذا ما لم يتم من قبل إذ اكتفى الحكام بالتحصن وراء الأسوار تحصينها وهذا هو الخطأ الذي أوقعوا أنفسهم فيه حيث حاصروا أنفسهم والمغول لديهم القدرة على المطاولة في الحصار فلم تصعب عليهم قلاع الإسماعيلية التي عجزت أقوى دول في ذلك الوقت من دك أسوارها .

معركة عينجالوت:

معركة عين جالوت من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي، وظلت تذكرها الاجيال على مر العصور الى ان يرث الله الارض ومن عليها، ولغرض تسهيل الموضوع على الطلبة سوف نتناول هذه المعركة من حيث اسبابها ونتائجها وآثارها .

اسباب المعركة :

1- كان للتحدي المغولي ومحاولة احتلال بلاد الشام ومصر سببا مباشرا لحدوث هذه المعركة.

2- رسالة التهديد التي ارسلها هولاكو الى السلطان المظفر قطز

3. حدوث تعاون بعض الامارات الارمنية والصليبية مع المغول مما كان له اثر مباشر ومهم لقيام تحد من نوع آخر خوفا من استفحال امره او حدوث تحالفات اخرى قد تنهي الوجود السياسي الإسلامي في المنطقة.

4- قطع الطريق امام المتخاذلين من قادة الجيش المصري، ووضعهم في المكان الصحيح لهم وهو القتال الذي وجدوا من اجله، وهو الدفاع عن 5- ديار الاسلام

5 وضع حد بعمل عسكري كبير ضد المغول لكي يوقفهم عند حدهم، بعد ان اعتقدوا ان قوتهم لاتقهر ، وانهم غضب من الله مسلط على الناس، وخاصة المسلمين الذين عليهم بقبول هذا الواقع المر.

6- اظهار دعوة الجهاد لدى المسلمين بعد ان خفت بهاؤها منذ زمن طويل، ووضع المسلمين امام واجبهم ، وجعل الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة فكيف يرضىالمسلمون بالمهانة والمذلة واساب النصر موجودة والقيادة موجودة والمال للجهاد مبذول

7- صعب على بعض قادة الجيش المملوكي رؤية مصر خاضعة للمغول الكفرة

ادرك قطز انه الوقت المناسب لضرب المغول، بعد رحيل هولاكو الى منغوليا، وانفضاض عرى التحالف الصليبي المغولي في الشام، بعد قيام المغول بتدمير ونهب وحرق مدينة صيدا وقتل كل

من وجدوه من الصليبيين فيها وساقوا من نجا من القتل اسرى، ليجعلوهم دروع بشرياً امام الجيش المصري لتقع عليهم الصدمة الأولى في القتال.

توجه الجيش المصري الى بلاد الشام وفي الطريق نكص عدد من قادة المماليك، فجمعهم السلطان قطز وخطب فيهم خطبة مؤثرة، وضعته امام واجبهم وامام مسؤولياتهم امام الناس وامام الله: ((يا أمرا المسلمين!... لكم زمان تأكلون من بيت المال وانتم للغزاة كارهون، وان متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك، يرجع الى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطب حريم المسلمين في رقاد المتأخرين))

وقد سار الجيش المصري مع الساحل بعد ان تم الاتفاق م الامارات الصليبية بعدم التعرض للجيش المصري، وتزويده بالمؤر والمواد الأخرى، وبهذا ضمن السلطان قطز مسيرة جيشه في منطقة امين من مباغتة المغول، مع تمتعهم بالامن في هذه المنطقة وعدم سلوكهم طريق الصحراء.

نظم السلطان قطز جيشه وقسمه تقسيم يدل على خبرة عسكر متميزة وجعل على مقدمته بيبرس البندقداري وامره بعدم القيام باي عسكري دون اخذ رأيه ودون مشورته، لأن النتيجة قد تكون عكسية على معنويات الجيش المصري، وربما تؤدي به الى الانهيار النفسي الذي يحدث قبل وقوع المعركة الرئيسية مع المغول، مثلما حدث مع كل الجيوش التي حارت المغول من قبل .

تقدم بيبرس البندقداري باتجاه مدينة غزة التي كان قد احتلها القائد المغولي (بايدر)، واشتبك مع الجيش المغولي وهزمه شر هزيمة، حتى اضطره الى الالتجاء الى نهر العاصي شمال الشام، وقد افاد بيبرس البندقداري من موقف القوات الصليبية التي لم تثق بالمغول، لما فعلوه في صيدا من نهب وقتل وتدمير .

لقد جن جنون القائد المغولي كتبغاً، وصار قطعة من اللهب بسبب الغيرة والغضب، وتقدم يقود قواته بعد سماعه بهزيمة بايدر، وعقد مجلسا استشاريا لكبار القادة المغول، فأشار البعض منهم إلى عدم لقاء الجيش المصري، وأن عليهم الانتظار حتى يأتيهم المدد من هولاكو، لكن كتبغا رفض هذا الرأي واندفع تسوقه كبرياؤه، وقوة المغول التي لم تقهر من قبل ، فاتخذ طريق بعلبك سالكا طريق الجليل وادي الاردن، الا انه فوجيء بثورة اهل دمشق عليه، فعاد لإخمادها مما أخر تقدمه الى عين جالوت .

اما السلطان قطز ، فلم يدع فرصة إلا واستخدمها لصالح النصر على المغول، فكتب إلى كل الأمراء المتعاطفين مع المغول مكرهين أو ،مختارين، ودعاهم للانضمام إلى الجبهة الإسلامية، أو

على الأقل الانسحاب من ساحة المعركة في احرج الظروف، أو تقديم العون العسكري والاستخباري للجيش المصري عن تحركات المغول واستعداداتهم العسكرية وخططهم ان كان ذلك ممكنا، وقد قدم له البعض من أمراء الشام ماطلبه منهم، انطلاقا من مبدأ الأخوة الإسلامية والنصح للمسلمين .

اتوجه السلطان قطز الى غور ،الاردن، جاعلا على مقدمته الأمير بيبرس البندقداري، حيث اشتبك مع مقدمة الجيش المغولي، وكان السلطان قطز قد اعد الخطة لإجبار المغول على القتال فيها، كما كان دائما بحث جنوده على نصرة دين الله وعليهم بالقتال حتى لا يحل بهم ما حل بالبلاد الإسلامية التي لم تقاتل المغول، وما أصابها من مصائب وويلات جراء التقاعس عن حرب المغول.

اشتبك بيبرس البندقداري مع مقدمة المغول، وكتب الى الملك المظفر قطز يعلمه بانه اشتبك مع المغول، وعليه أن يسرع للحاق به وتطبيق الخطة الموضوعة، وهي الانهزام أمام المغول في بداية المعركة، حتى يلحق بهم المغول، ليقعوا بعد ذلك في الكمائن التي اعدت لهم، وهذا ما تم فعلا، ففي بداية المعركة انهزمت المقدمة المصرية، فلحقها المغول وكانت تحيط بالمنطقة من بعض الجهات، واندفع كتبغا بكل قواته لإحداث الصدمة بالجيش المصري، والحاق المنهزمين، فخرجت عليه الكمائن وأحاطت به من جميع الجهات، وكان السلطان قطز مع جنده يحثهم ويشجعهم ويمنيهم، حتى تم النصر بعون الله تعالى، وقد ابيد الجيش المغولي والقوات الارمنية المتحالفة معه، وكان هذا اليوم وهو الخامس عشر من رمضان من سنة 658هـ / 13 ايلول 1260م. ولحقت القوات المصرية بالمنهزمين من المغول، ومن اعانهم على المسلمين وقد وقع قائد الجيش المغولي اسيرا في ساحة المعركة ثم اعدم بعد ذلك.

ج –نتائج معركة عينجالوت وآثرها على الوضع العام :

كانت لهذه المعركة العظيمة، واسمحوا لي ان اسميها عظيمة، فهي عظيمة في مدلولها ووقائعها وآثارها على عموم المنطقة ويمكن ان نجمل نتائجها وآثارها بما يعيننا الله عليه، فنقول ومن الله التوفيق:

1- اعادت هذه المعركة الثقة إلى نفوس المسلمين، فرغم أن المغول قد جمعوا قواتهم مرة ثانية قرب بيسان الا ان الهزيمة حلت بهم مرة ثانية، وشجعت الخائفين الذين كانوا مترددين أو خائفين من المغول على التمرد عليهم. كما حطمت الاسطورة القديمة بان جيش المغول لا يقهر

2- قام السلطان قطز بإرسال البشارة إلى اهالي دمشق بالنصر على المغول، فهرب من كان بها من المغول وتعقبهم الناس وقتلوهم شر قتلة، وقام السلطان قطز وسكان دمشق بقتل كل من وقف

الى جانب المغول اعداء الانسانية ولقنوا من تعاون معهم من اهل الشام عامة ودمشق خاصة ما يستحقونه من عقاب الخيانة، ومعاونة الاعداء المغول

3- أكدت هذه المعركة قوة وقدرة المسلمين اذا ما توحدوا ورفعوا شعار لا اله الا الله محمد رسول الله وكلما ازداد ايمان المسلم بالله . واخذ بالأسباب نصره الله نصرا مؤزرا.

4- شكلت هذه المعركة سدا منيعا امام المغول للتقدم غربا صوب مصر وبذلك نجت الديار المصرية والاراضي الواقعة خلفها من الدمار والتخريب وهي تعد صدمة عنيفة للمغول ،وذلك لقتل خيرة قوادهم في هذه المعركة بحيث اصبح المغول يحسبون الف حساب قبل القدوم على خطوة اخرى لغزو مصر او بلاد الشام

5- جاءت هذه المعركة بنتيجة عكسية، فلو انتصر المغول لقضي على البقية الباقية من دول الاسلام في الشام ومصر ، ولتحالفت القوى المعادية للإسلام مع المغول ، يقول :رنسيمان: ((ما احرزه المماليك من انتصار، أنقذ الإسلام من اخطر تهديد تعرض له، فلو ان المغول . 9 توغلوا الى داخل مصر، لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة شرقي بلاد المغرب))

6ـأعادت هذه المعركة الوحدة إلى بلاد الشام ومصر، وعادت هذه البلاد إلى عصر نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، وازالت نتائج هذه المعركة كل المتعاونين من بقايا البيت الايوبي من الذين كانت تهمهم مصالحهم الخاصة أكثر من مصالح المسلمين.

7- علمت هذه المعركة المسلمين أهمية التآزر ولم الشمل، ولم تقف نتائج هذه المعركة على المسلمين بل تعدتها الي أوربا ،واعتراف المؤرخون الاوربيون بأهميتها قبل ، غيرهم حيث وقفت هذه المعركة بوجه المغول، ومنعتهم من غزو أوربا وتدميرها وبذلك نجت أوربا من الدمار الذي أصاب العالم الإسلامي بفضل المسلمين

8- بعثت هذه المعركة الهمة في نفوس المسلمين في خراسان التي كانت خاضعة للحكم المغولي المباشر ، فقوي مركزهم، واخذوا ينافسون من وقف مع المغول ويريحوهم عن أماكنهم ، وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الإسلام حتى تحولوا إليه

9- و توطدت العلاقات بين مسلمي القبجاق مغول القبيلة الذهبية) وبين مماليك مصر، وتحالفوا ضد مغول العراق وإيران بزعامة هولاكو وخلفاؤه

10- أسفرت هذه المعركة عن فشل ذريع لسياسة الصليبيين في بلاد الشام، ومنحت قوة أمصر في زعامة العالم الإسلامي، وتحرير بلاد الشام من بقايا الصايببين فيه .

11- تجنبت مصر بهذه المعركة التدمير والخراب والنهب والسلب والتأخر الذي أصاب بقية البلاد التي سيطر عليها المغول ، مما جعلها تحمل مشعل الحضارة فترة أخرى من الزمن، وتكون ملجأ للمسلمين في الشرق والغرب. وختاما عدت هذه المعركة من أهم المعارك، وهي لاتقل في أهميتها عن المعارك المصيرية الكبرى، فحري بنا أن نتلمس منها الدروس.

12- أعطت هذه المعركة لكيان المماليك السياسي الشرعية في حكم البلاد الواقعة تحت سيطرتهم، بحيث أصبح المماليك هم المدافعين عن الإسلام وأهله، كما نقل المماليك الخلافة العباسية إلى مصر، وأصبحوا في نظر الناس هم حماة الدين الإسلامي والذين ينفذون سياسة الخليفة العباسي في العالم الإسلامي

13.- وضعت المعركة المغول امام قوة فتية لم يألفها المغول من قبل في البلاد التي سيطروا عليها في مشرق العالم الإسلامي، وأصبح على المغول أن يعيدوا حساباتهم من جديد تجاه خصم عنيد هم المماليك